وتأثيرهما في الادب وتاريخه

بقلم الاستاذ محمد احمد الغمراوي

عمل الذوق في تاريخ الادب

على ان هذا[1] ليس معناه ان الذوق لا عمل له قط في تاريخ الادب من حيث هو تاريخ. فان له فيه عملاً اختص تاريخ الادب به أغفله صاحب الكتاب[2] ونريد الآن أن نتناوله بتبيين.

ذلك ان لكل كاتب او شاعر روحاً خاصاً يتمشى في اكثر كتاباته من نثر او شعر بحيث لو اكثر مكثر من قراءة كاتب او شاعر وتذوّق أدبه تربى لديه ذوق خاص بذلك الكاتب أو الشاعر يدركه به كلما رآه. فاذا اكثر المشتغل بالادب من قراءة المتنبي وأبي العلاء مثلاً، او حافظ وشوقي، او مكاوي ورسكن، استطاع أن يدرك بما عرف أنه لهم ما لم يعرف بمجرد قراءته او سماعه كائنا صار لكل منهم عنده مذاق خاص، أو كأنما انتقل اليه جزء من الذوق الذي كان لكل منهم وامتازت هذه الاجزاء عنده فصار كل منها يدل على الاصل الذي انشق عنه وانتمى اليه.

ولا شك ان ذوقاً كهذا كان مما أعان الرواة والشعراء والنقاد الاقدمين على ادراك الدخيل في شعر شاعر بعينه أو كتابة كاتب بعينه، ولعله هو الذي دلّ الاصمعي على البيت:

---

١) يشير الى فصل سابق في « مكانة الذوق في تاريخ الادب »

٢) اي الدكتور طه حسين

انبضوا سجس القسي وأبرقنا كما ترعد الفحول الفحولا

من بين أبيات قصيدة المهلهل[1]:

بتُّ ليلي بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرًا أن يزولا
كيف أهدا ولا يزال قتيل من بني وائل يُغنّي قتيلا

فاختاره من بينها وقال انه موضوع[2]. وذوق كهذا هو من غير شك الذي جعل بشارًا ينكر البيت:

وانكرتني وما كان الذي نكرتْ من الحوادث الا الشيب والصلعا

حين عرض عليه منسوباً الى الاعشى فقال: انه لا يشبه كلام الاعشى.[3] فهذا عمل للذوق في تاريخ الادب لا يستهان بقيمته اذا احسن استعماله

هذا الذوق المكتسب غير الذوق الشخصي

لكن علينا أن نحذر هنا زلة كالتي زلها صاحب الكتاب حين استعمل كلمة الاديب بمعنيين مختلفين في مقام واحد فلا ندع كلمة الذوق في عبارتنا الماضية تمرّ مطلقة من غير تقييد فانها اذا اطلقت دلت على الذوق الشخصي الناشيء عن شخصية الفرد نفسه، والذي يتجلى عند كل فرد فيما يلذ وما يكره وما يفضل، والذي عنه يصدر فيما يقرأ وما يكتب فتكتسب كتاباته ذلك الروح الخاص الذي يلازم كتابة كل أديب له ذات أدبية مستقلة. ولكن الذوق بهذا المعنى غير الذوق المكتسب أو قل غير الملكة المكتسبة من اكثار قراءة كاتب بعينه أو شاعر بعينه والتي تدل مكتسبها على ذلك الشاعر أو الكاتب ان تمابله في كتاب.

التقريب بين الذوق المكتسب والذوق الشخصي او الذاتي

ولعلنا نقرب للقارئ أمر التفرقة بين الذوقين اذا قلنا ان المراد بالذوق الشخصي للمؤرخ أو الناقد هو ما يقابل الذوق الشخصي في المؤرخ له أو المنقود.

١) عقد: الثالث: حرب البسوس
٢) الكامل: ثان ص١٨٨
٣) ابن سلام

ففي مثل بشار والاعشى كان لبشار ذوق شخصي أو طبيعي يتجلى في شعر بشار وكان للاعشى ذوق يقابله يتجلى في شعر الاعشى . لكن بشاراً اكتسب مما حفظ ودرس للاعشى خبرة بشعر الاعشى أو قل جزءاً من ذوق الاعشى أمكنه أن يدرك به ان بيتاً مخصوصاً نسب الى الاعشى لا يشبه كلام الاعشى. فهذان الذوقان ممتازان في بشار أحدهما يلازمه فيما يقول من شعر والثاني قلما يستعمله الا عند الكلام على الاعشى خصوصاً عند تمييز شعره من شعر غيره.

ولسنا نجهل أن ذوق بشار الخاص قد تأثر بما أحب أو كره مما قرئ عليه للاعشى ولغيره .. لكن ما استفاده من ذلك قد فقد شخصيته وتحول الى جزء من ذوق بشار كما يفقد الغذاء شخصيته ويتحول الى جزء من الحيوان أو النبات الذي يطعمه ، في حين أن ذوقه المكتسب من مطالعة شعر الاعشى ظل عنده مستقلاً مكوناً يشعر به بشار حين يستعين به على نقد شعر أهو للاعشى أم ليس له ، كما فعل في المثل الذي ذكرناه عن ابن سلام.

هذا فرق. وهناك فرق آخر بين الذوقين يحسن أن نذكره زيادة في الايضاح هو ان الذوق الذاتي لشخص ما واحد لا يتعدد وان جاز أن يتطور كما يتطور الكائن الحي ، في حين أن الذوق المكتسب يمكن ان يتعدد ، اذ يستطيع الاديب أن يدرس اكثر من كاتب أو شاعر ويكثر من قراءة كل كاتب أو شاعر يدرسه فيفيد من كل منهم ذوقاً يعرفه به

وفرق بين الذاتي والمكتسب اهم من هذا هو أن الذوق المكتسب من شاعر أو كاتب ما يستطيع أن يكتسبه أكثر من أديب واحد اذا أكثر كل منهم قراءة ذلك الكاتب أو الشاعر. فهذا تعدد في الذوق المكتسب ولكن عكس التعدد الاول ، ففي الاول كان المكتسب واحداً وتعدد المكتسب منهم وهنا توحد المكتسَب منه وتعدد المكتسبون.

هذا النوع الاخير من التعدد أهم كثيراً في تاريخ الادب وأنفع من النوع الاول لان فيه ضماناً حسناً لصحة الحكم المبني على هذا الذوق المكتسب فان التحقيق الادبي يقتضي أن يكون هناك طريق يعرف به جودة الذوق المكتسب من كاتب أو شاعر ما عند ناقد ما ، ويعرف به صحة ما يصدره ذلك الذوق

حكم . والتحقيق يجد مثل هـذا الضمان فيما يكون هناك بين أهل الذوق المكتسب الواحد من الاختلاف أو الاتفاق في حكمهم بذوقهم على صحة نسبة قول ما الى الكاتب او الشاعر الذي اكتسبوا منه ذاك الذوق.

فذلك الذوق المكتسب له إذن عمله وقيمته في النقد الادبي التاريخي. اما الذوق الشخصي فان موقف المؤرخ الادبي منه كموقف العالم يجب ان يتحلل منه ما استطاع.

موقف صاحب الكتاب من الذوقين

لكن صاحب الكتاب لم يُعنَ بالتفرقة بين هذين الذوقين وعكس الامر فحكم الذوق الشخصي الى حدّ كبير في التاريخ الادبي واغفل الذوق المكتسب اغفالًا . صحيح انه أشار فيما بعد (ص ٤٧) الى استخلاص ما في شعر الشاعر المدروس «من خصائص لغوية أو نحوية أو بيانية» وهـذا طبعاً طريق مهم لامتحان صحة نسبة قول الى أديب معروف ولكنه طريق آخر غير طريق الذوق المكتسب: هذا يتعرف روح الشاعر التي تذاق، وذاك يتعرف الخصائص التي ترى . هذا سريع لا يكاد يحتاج من الزمن الا الى ما يسع مجرد القراءة أو السماع، وذلك بطيء يحتاج الى تعمل والى زمن يتسع لان يعرض القول فيه على تلك الخصائص واحدة بعد أخرى . وبشار حين أنكر بيت الاعشى انكره بذوقه، ولعله لو كان سئل لماذا لما استطاع أن يجيب ولو أراد أن يعرض ذلك البيت على ما كان يعرفه من خصائص كلام الاعشى لاحتاج الى زمن وتفكير، ثم لعله لم يكن يظفر بعدهما بشيء يمكن الاعتداد به، لان خصائص الشاعر اللغوية أو النحوية أو البيانية لا تظهر في كل بيت من أبياته.

فصاحب الكتاب قد أهمل الذوق المكتسب ومكانته في التاريخ الادبي اهمالًا واستبدل به الذوق الشخصي وجعله أساساً لشيء سماه المقياس الادبي لتاريخ الادب.